من تراثنا المجهول :

الجراحة عند أبي القاسم الزهراوي
وتأثيرها على الطب في أوروبا

أ.د/ محمود سالم الشيخ (*)

إذا كـان ابـن سـينا يعتبر " أمير الأطباء " فإن أبا القاسم خلف بن عباس الزهراوي يعتبر بما لاشك فيه " أمير الجراحين " .

وقبل أن نسلط الأضواء على أهمية هذا الطبيب العربي الأندلسي في تاريخ الطب والجراحة وتأثير كتاب " الجراحة " على أوروبا وعلى الطب الحديـث ، اسمحوا لي أولا أن ألقي نظرة ولو سريعة على البيئة التي ولد ونشـأ فـيها أبو القاسم ، وعلى الظروف الثقافية والعلمية التي مرت بها الأندلس في بداية الحكم الإسلامي بعد أن تم غزو أسبانيا في الفترة ما بين ٧١١-٧١٤ مـيلادية على يد القائد البربري طارق بن زياد، اتسم تاريخ العرب في أسبانيا في بدايته بالعديد من الصعوبات ، أهمها:

أولا : عـدم الاسـتقرار السياسي ، إذ عرفت الأندلس أكثر من ٢٠ حاكماً في الفترة ما بين ٧١١-٧٥٦ ، أي في حوالي ٤٥ عاماً .

ثانيا : الاضطرابات الاجتماعية الناتجة عن نوعية تكوين السكان؛ إذ كان البربر وسكان الأندلس يشكلون الغالبية الساحقة للسكان ، وكان العرب يشكلون أقلية رغم توليهم الحكم والمراكز القيادية . وتسببت هذه الظاهرة في عدم الاستقرار السياسي والاجتماعي إلى أن تولى الأمير عبد الرحمن

(*) أستاذ النقد وتحقيق المخطوطات - نائب رئيس جامعة فلورنسا (إيطاليا) - الشرق الأوسط وشمال أفريقيا

obeikandl.com

الأول زمام الحكم (٧٥٦-٧٨٨) ووقع على عاتق عبد الرحمن الأول عبء التنظيم الإداري والسياسي ليجعل من الأندلس دولة بالمعنى الصحيح للتعبير . وإلى جانب هذا الإنجاز العظيم لتأسيس دولة الأندلس ، كان من أهم أعماله الإنشائية التي لازال يذكرها له التاريخ مسجد قرطبة وكوبرى الوادي الكبير(QUADALQUIVIR) إلا أن عبد الرحمن الأول لم يبد أي اهتمام بالعلوم والآداب ، أسوة بما كان يفعل في ذلك الحين الخليفة المنصور في بغداد ، والذي كان له الفضل في تكريم الطبيب المسيحي النوستورياني السوري المشهور جرجس بن بختيشو – مؤسس ومدير مستشفى جندي شابور ، عندما استدعاه إلى قصر الخلافة في بغداد عام ٧٦٨ . ومن الجدير بالذكر أن جرجس بن بختيشو كان ينتمي إلى أكبر عائلة أطباء طالت شهرتها أكثر من ثلاثة قرون إلا أن عبد الرحمن مهد الطريق وأسس الدولة على أسس قوية ومتينة مكّنت ابنه وخليفته الأمير هشام (٧٨٨-٧٩٦) من الحث على القراءة ، وجمع الكتب والمجلدات ، وتشجيع العلوم ، واستضافة العديد من العلماء في شتى المجالات ؛ من أطباء إلى رياضيين ، من شعراء إلى قضاة ، من علماء الفلك إلى علماء النبات ... وقد أدى هذا الاتجاه إلى تشجيع العلوم والآداب في عهد عبد الرحمن الثاني أو الأوسط (٨٢٢-٨٥٢) ، وإن كان وجه المقارنة لمعدوم تماماً بين ما كان يحدث في الأندلس والنشاط الثقافي والعلمي ، أو بالأحرى الثورة العلمية والثقافية التي تبناها الخليفة المأمون في بغداد ؛ حيث أنشأ " دار الحكمة " التي أصبحت في نفس الوقت مقراً لأكبر مركز للترجمة عرفه تاريخ الإنسانية، كان قد عهد به الخليفة المأمون إلى حنين بن إسحاق وابنه إسحاق ثم حفيده حبيش وعيسى بن يحيى ويحيى بن

بطريق وغيرهم ممن لهم الفضل في ترجمة التراث اليوناني إلى اللغة العربية ، وكان للأندلس أن تنتظر حتى منتصف القرن التاسع لكي تشهد انتفاضة ثقافية وعلمية . وجاءت هذه الانتفاضة وليدة الصدفة ومثل فيها دور البطولة دون عمد باقي بن مخلد، من أوائل علماء العرب في الطب بالأندلس .

ففـــي النصـــف الثاني من القرن التاسع قصد ابن مخلد – مثله مثل علمـــاء الأندلـــس المتعطشـــين للعلم – قصد بغداد طالباً المزيد من العلم والمعرفة . وبعد عودته إلى مدينته قرطبة ، اتهمه علماء الدين بالإلحاد . وكـــان لموقف الأمير محمد الأول ابن عبد الرحمن الثاني (٨٥٢-٨٨٦) ، الذي دافع بجرأة وحزم عن حرية العلم والعلماء أثر كبير وفعال في تشجيع العلمـــاء وازدهار الحركة العلمية في الأندلس ، وإذا كانت مصادر تاريخ الطـــب العربي في الأندلس ــ من ابن جلجل إلى صاعد الأندلسي إلى ابن أبـــي أصـــيبعة ــ تشير إلى وجود العديد من الأطباء في تلك الفترة، مثل جمديـــن بن أبان الذي كان يمارس الطب في قرطبة في ذلك الحين، وعبد الملـــك بن حبيب السلمي الألبيري ، الذي ألف كتابا جمع فيه أخباراً عديدة عن الطب والأطباء العرب ، وزوّده بمعلومات هامة عن الأدوية والأغذية، والأمزجة ، والطبائع ، وما إلى ذلك ؛ إلا أن أهم علماء الطب وممارسيه في تلك الفترة هو يونس بن أحمد الحراني .

عـــاد يونس بن أحمد الحراني إلى قرطبة بعد فترة قضاها في بغداد للـــتعمق فـــي دراسة الطب والصحة . ويشيد مؤرخو الطب في الأندلس بمهـــارة الحراني كطبيب، وبالأدوية التي كان يحتفظ بسر تركيبها وبيعها بأســـعار باهظـــة ــ وبخاصة معجون لأوجاع الجوف انتشرت شهرته في جميع أنحاء أسبانيا .

وفـــي نفــس الوقــت تمــيز جواد المسيحي بصناعة الأدوية : من مشــروبات ومراهم ، وكان أهم ما اشتهر به دواء عرف "بدواء الراهب"، وتعتبر هذه الفترة بداية تصنيع الأدوية وتسويقها في الأندلس .

وشـــهدت العلــوم والفــنون والآداب عصرها الذهبي في عهد عبد الرحمــن الثالث، الذي انتهز فرصة ضعف الخليفة المقتدر بالله العباسي ، وأعلــن نفسه عام ٩٢٩ " خليفة المسلمين " و " أمير المؤمنين " ، واختار لنفســه لقب " الناصر لدين الله " مؤكدا بذلك انفصال الأندلس سياسيا عن بقــية الممــالك الإسلامية وخلافة بغداد. وفي عهد الناصر (٩١٢-٩٧٦) ارتقــت الأندلــس إلـــى أعلى مراتب القوة والتقدم في جميع المجالات ، وأصبحت قرطبة أجمل مدن أوروبا ، وعاصمة العلم في الخلافة الغربية ؛ يؤمهــا العلمــاء والطلاب من المشرق والمغرب ؛ وتتنوع فيها الدروس والمحاضرات .

وقــد نالــت مختلف العلوم نصيبها الموفور من اهتمام الناصر وابنه الحكــم المستنصر بالله ، الذي كرس كل جهوده طوال حياة أبيه في جمع الكتب والمجلدات ، وتكريم العلماء من كل بقاع أرض الإسلام . وكان لتلك السياســة الحكيمة أثر بالغ وفعال في ارتباط الأندلس بمراكز العلم والثقافة فـــي العــالم الإسلامي ، مثل : بغداد ، ودمشق ، والقاهرة ، والقيروان ، وفــاس . وساعد ذلك على توطيد واستمرار الصلات الفكرية والعلمية بين مختلف المراكز الثقافية والعلمية في أركان العالم الإسلامي.

ورمزا لقوة الأندلس وعظمة الخليفة الناصر ، أمر عبد الرحمن الثالث ببناء مدينة ، على بعد خمسة أميال شمال غرب قرطبة ، لتكون مركزا للحكم ، ومقرا لاستقبال الوفود الرسمية ، ومكانا لاستجمام الحكام،

بعيداً عن غوغاء قرطبة ، وأطلق عليها اسم " الزهراء " نسبة إلى اسم حرمه . وفي عام ٩٣٦ ، بدأ فعلا بناء ما أطلق عليه R. DOZY " بومبي العرب " أو " فيرساي الأمويين " كما سماها J. HARIZ .

ولازالــت أنقــاض وآثــار مديــنة الزهراء ، التي تحاول السلطات الأسبانية ترميمها ، وإعادتها إلى ما كانت عليه في فترة ازدهارها ، تشير إلى عظمتها المعمارية وثروتها الفنية والثقافية .

وفي هذه المدينة ولد وترعرع الطبيب العربي الأندلسي أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوي ، في فترة ميزها التاريخ بالتقدم العلمي وازدهار النشاط الثقافي؛ عرفت فيه الأندلس في مجال الطب والصيدلة العديد من العلماء والدارسين ، مثل يحيى بن إسحاق ، طبيب بن طبيب ورجل دولة مرموق في عهد الناصر ، تذكر لــه موسوعة طبية من خمسة أجزاء . كما تذكر مصادر التاريخ ابن ملوكة وسعيد بن عبد ربه، الذي تميز – إلى جانب الشعر – باهتمامه بالصيدلة وقد كان لكتابه "الأقربضين" أثر كبير وفعال في تطور الصيدلة ، حيث يعتبر أول دراسة من نوعها كتبت في أسبانيا . ومن أمهر الجراحين المعاصرين للزهراوي نذكر هارون بن موسى الأشبوني ، طبيب قصر الخلافة في عهد الناصر وابنه الحكم المستنصر . كما تميز في فن الجراحة وجبر الكسر في العظام في تلك الفترة خالد بن يزيد بن روقان القرطبي ، رغم أن مصادر التاريخ تذكره بموسوعته عن النباتات ، المعروفة باسم " الشجرية " .

ومن علماء النبات نذكر حامد بن سمجون (المتوفى عام ١٠٠١) ، وسليمان بن حسان بن جلجل ، الذي يعتبر من أهم علماء النبات في ذلك الوقت . ولابن جلجل الفضل العظيم في نقل قصة ترجمة كتاب " تفسير

الأدوية المفردة " لـ ديوسقوريدوس " من اليونانية إلى العربية في الأندلس . إذ أرسل الإمبراطور قسطنطين السابع (أرماينوس) إلى الخليفة الناصر بعدة هدايا ، كانت تتضمن نسخة يونانية من " كتاب الحشائش " لـ " ديوسقوريدوس " مزودا بصور ما يصفه من أعشاب . ويقول ابن جلجل بأنه يومئذ لم يكن في قرطبة من يجيد اللغة اليونانية ، فأرسل الإمبراطور عام ٩٥١ تلبية لطلب الخليفة الناصر ــ الراهب NICOLA، الذي كان يعتبر حجة لغوية في اليونانية والعربية . وتألفت بأمر الخليفة لجنة من العلماء والمتخصصين في علم الأعشاب ، يرأسهم الراهب NICOLA ، لترجمة كتاب ديوسقوريدوس ؛ وكانت اللجنة تضم العالم اليهودي حسداى ابن شبروط (٩١٥-٩٧٠) ، ومحمد المعروف بالشجار ، وأبو عثمان الحزاز الملقب باليابسة ، وأبو عبد الله الصقلي ، ومحمد بن سعيد ، وعبد الرحمن بن إسحاق بن الهيثم .

ومما لاشك فيه فإن ترجمة كتاب ديوسقوريدوس إلى العربية بالطريقة العلمية التي أنجز بها ، كان له أثر بعيد في تطور علم النباتات، وتنشيط الدراسات المتعلقة بالأدوية المفردة ، سواء في الخلافة الغربية وشمال أفريقيا أم في الخلافة الشرقية ، وهكذا كان الطب والصيدلة وعلم الأدوية والأغذية والنبات من أهم العلوم التي شملتها رعاية الحكام ، وحظى أصحابها بالتشجيع ، وأتيح لهم الجو الملائم والمجال المناسب لمواصلة نشاطهم في البحث والتجربة والتأليف .

في تلك الظروف تمكن أبو القاسم من دراسة الطب والصيدلة بتعمق لم يسبق له مثيل ، لدرجة أن ابن حزم اعتبره في رسالته المشهورة (٩٩٤-١٠٦٤) ضمن العلماء الأربعة المتميزين في مجال الطب ، كما

ذكره في منتصف القرن الثاني عشر المؤرخ ابن سعيد ضمن أكبر خمسة أطباء نبغوا في أسبانيا .

وبالرغم من أهمية أبي القاسم في تاريخ الطب ، إلا أن سيرته فقيرة جداً لو قارناها بآخرين من الأطباء العرب المشهورين .

فـلا تنقصنا – مثلا – الأخبار عن أطباء الأندلس كابن جلجل ، أو ابـن الوافـد (٩٧٧-١٠٧٤) ، أو ابن مساوية (المتوفى عام ٨٥٧) ، أو الـرازي (٨٦٥-٩٢٥ تقريبا) ، أو ابن سينا (٩٨٠-١٠٣٧) ، وذلك لأن الزهـراوي لم ينل ما يستحقه من اهتمام مؤرخي العلوم الأندلسيين، وبذلك بقيـت سـيرته العلمـية والمهنية وتاريخ حياته وتاريخ وفاته من الأمور المجهولة .

على أي حال فإن لقبه (أو نسبته) " الزهراوي " يدل – مما لاشك فيه – على أن مسقط رأسه هو مدينة الزهراء . وبما أن أعمال البناء لتشييد مدينة الزهراء بدأت ــ كما ذكرنا ــ عام ٩٣٦ ، فلابد أن نحدد تاريخ ميلاد أبي القاسم بعد هذا العام ، أو على الأكثر في نفس العام ، أما عن تاريخ وفاته فإن ليون الأفريقي يرشح عام ١٠١٣ وإن كان بعض المؤرخين يرجحون عام ١٠١٠.

كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف :

" تـرك أبـو القاسـم موسوعة طبية تتكون من ثلاثين كتاباً ، تدل بوضـوح علـى درايته الواسعة بمهنة الطب وفن الجراحة ، وتكشف عن خبرته بالأمراض المتنوعة وطرق علاجها ، وبمنهجه في التأليف ، الذي يعد في عصره منهجاً مزيداً اتسم بحسن التنظيم والتبويب ، والوضوح في التعبير ، وفي تقديم وسائل الإيضاح العلمية والتربوية بالأشكال والصور .

لــذا اســتمرت هــذه الموسوعة، في الشرق والغرب ، مرجعا متميزا في المراكز الطبية والجامعات ، وبين يدي الأطباء والصيادلة والمؤلفين طوال قــرون عديدة . ولازالت حتى الآن ــ رغم مرور عشرة قرون ــ تتمتع بمكانة علمية لم يسبق لها مثيل .

وقد حاز آخر كتب الموسوعة (الكتاب الثلاثون) ، إعجاب وتقدير الدارســين والباحثين العرب في المشرق والمغرب في عصر أبي القاسم ، حيــث يعتبر أول دراسة علمية ، كاملة وشاملة لعلم الجراحة ، أو " العمل بالــيد " ، لــم يسبق لها نظير في أي عصر من العصور ؛ إذ يتميز هذا الكــتاب بدقة الملاحظة والتجارب العملية التي استخدمها أبو القاسم أساساً لدراســته ، كما يلتزم بالنقد الفعال لما سبقه من دراسات ، وخاصة الطب اليوناني . كما اتسم هذا الكتاب ــ وهذه صفة فريدة من نوعها ــ بأنه أول دراســة فــي علم الجراحة تلم بأحدث وسائل الإيضاح العلمية والتربوية، مــزودة بأشــكال وصــور الآلات الجراحية التي اخترعها أبو القاسم أو طورها، مع وصفه كيفية تصنيعها والدلالة على مواد التصنيع.

وظل هذا الكتاب مجهولا في أوروبا حتى منتصف القرن الثاني عشر، عندما قام GHERARDO DA CREMONA ــ الباحث والمترجم الإيطالي الذي كرس حياته للتنقيب عن أهم أعمال العرب لترجمتها إلى اللاتينية حتى تستفيد منها أوروبا في الفترة التي عرفت فيها أشد حالات التدهور ــ قام بترجمته إلى اللغة اللاتينية، ثم أرسل من هذه الترجمة نسختين: نسخة إلى جامعة بولونيا BOLOGNA ، والأخرى إلى جامعة ساليرنو SALERNO ؛ أي إلى أقدم وأعرق الجامعات الأوروبية وأهمها في ذلك الوقت .

وهكـــذا أصـــبح كـــتاب أبـــي القاسم أول كتاب للجراحة يدرس في الجامعـــات الإيطالـــية ، ويعتبر حجة لدى الأطباء ، والدارسين لفن العمل باليد ، وممارسي الطب والجراحة في كل أنحاء إيطاليا .

ولأســباب سياســية اضطر عدد كبير من أهم وأشهر أطباء إيطاليا، مثل:

RUGGERO DA PARMA, LANFRANCO DA MILANO , UGO DA LUCCA, LUIGI DA REGGIO , BRUNO DA LONGOBUCCO , NICOLA DA FIRENZE , LUIGI DA PISA , SILVESTRO DA PISTOIA , ARMANDO DA CREMONA

إلى الهجرة إلى فرنسا في منتصف القرن الثالث عشر (١٢٥٢) ، وكان لهذه النخبة من كبار الأطباء الفضل في نشر كتاب أبي القاسم في مختلف مدن فرنسا ، وما ترتب على ذلك من إحياء فن الجراحة وإنقاذه من الشعوذة ونزعه من يد الحلاقين والدجالين .

وشكّل كتاب الزهراوي المرجع الفريد في فن الجراحة ، والمعجم الوحيد الذي كان يلازم كل طبيب وجراح لعدة أجيال متعاقبة ـــ ليس فقط ـــ بل إن كتاب الجراحة كان مجال البحث والدراسة من قبل علماء الطب ودارسيه . ففي القرن الثالث عشر اقتبس الطبيب الإيطالي GUGLIELMO DI SALICETO (١٢١٠-١٢٨٠) من كتاب الزهراوي فصولا وأبوابا كاملة ، ليصيغ كتابه الذي أطلق عليه اسم "الجراحة" وبالرغم من أنه لم يذكر قط اسم الأندلسي إلا أنه نسب الكثير لنفسه. ومن المعلوم أن مؤرخي الطب يعتبرون مؤلف GUGLIELMO DI SALICETO المكون من خمسة أبواب أولى الأعمال العلمية التي بني على أساسها علم الطب والجراحة في إيطاليا .

وفي القرن الرابع عشر اتخذ الطبيب الفرنسي GUY DE CHAULIAC (١٣٠٠-١٣٧٠) كتاب الزهراوي كمرجع أساسي في تأليف كتاب عن الجراحة نسخه عام ١٣٦٠ .

وبعكس GUGLIELMO DI SALICETO الذي لم يذكر إطلاقا أبا القاسم، ناكراً بذلك فضله ؛ فإن الطبيب الفرنسي GUY DE CHAULIAC أثنى على الأندلسي ومدحه في كتابه أكثر من ٢٠٠ مرة. ومن الجدير بالذكر أن تدريس الجراحة في جامعات أوروبا اعتمد على كتاب العالم الفرنسي حتى بعد القرن السابع عشر ؛ أي بعد مجيء العالم البلجيكي ANDREA VESALIO .

فإذا كان ما كتب الطبيب الفرنسي مقتبساً من كتاب أبي القاسم ، فنستطيع التأكيد أن كتاب الزهراوي كان ـ بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ـ أساسا لعلم الجراحة في أوروبا حتى ذلك الحين .

وزادت شهرة أبي القاسم وتردد اسمه بإعجاب واحترام عبر العصور. ففي القرن الخامس عشر ذكر الإيطالي FERRARI ـ المعروف باسم MATTEO DE GRADIBUS ـ ذكر الزهراوي عشرات المرات ، وأشاد بمقالته السابعة والعشرين " في طبائع الأدوية والأغذية" . وفي نهاية نفس القرن (١٤٩٢) نشر SANTE DE ARDOYNIS في مدينة البندقية كتابا عن السموم " LIBER DE VENENIS " لا تخلو صفحة واحدة منه من اسم أبي القاسم .

وفي القرن السادس عشر درس الطبيب الجراح " FABRIZIO DI ACQUAPENDENTE " (١٥٣٣-١٦١٩) أعمال أبي القاسم واعتبره مع PAOLO D'EGINA, CELSUS أكبر علماء فن الجراحة ، منصبا بذلك الزهراوي كأحد أركان هذا الثالوث العلمي الخالد .

وفي نفس القرن ترجم SABUNJU-OGHLU SHARAF AD-DIN ALI AL-HAJJ ILIAS كتاب الجراحة إلى اللغة التركية . وتعتبر هذه الترجمة من أهم الترجمات ، خاصة وأنها تحتوي إلى جانب الآلات الجراحية على صور للعمليات الجراحية التي وصفها الزهراوي .

هذا وقد حظى كتاب الجراحة بشرف الطباعة منذ بداية اختراعها ؛ حيث ظهرت أول طبعة في البندقية عام ١٤٩٧ ، تلتها طبعات أخرى على فترات قصيرة عامي ١٤٩٩ و ١٥٠٠ . وأصدر بعد ذلك الناشر الإيطالي الشهير LUC'ANTONIO DE GIUNTA أربع طبعات في البندقية في عام ١٥٠٦ و ١٥٣٠ و ١٥٣١ و ١٥٤٠ . وفي عام ١٥٣٢ طبعت نسخة سترازبورج ، تلتها بعد أعوام الطبعة الشهيرة التي نشرت في مدينة بازل عام ١٥٤١– وكلها باللغة اللاتينية . وأعيد طبع كتاب الجراحة عام ١٧٧٨ في OXFORD ، وأشرف على طباعته JOHANNES CHANNING الذي كان له فضل نشر النص العربي مقابل النص اللاتيني :

" ALBUCASIS DE CHIRURGIA , ARABICE TE LATINE "

وترجع أول ترجمة حديثة لكتاب الجراحة إلى الطبيب الفرنسي LUCIEN LECLERC ، الذي كان يمارس الطب في شمال أفريقيا في القرن ما قبل الماضي ، حيث ترجم كتاب الزهراوي إلى اللغة الفرنسيه ونشره في ملزمات جمعها في مجلد طبع عام ١٨٦١ . وقد لخّصَ LECLERC مكانة الزهراوي وفضله في تطور الطب بقوله : " يعد أبو القاسم ، في تاريخ الطب ، أسمى تعبير عن علم الجراحة عند العرب ، وهو أيضا أكثر المراجع ذكرا عند الجراحين في العصور الوسطى ".

وقد احتل الزهراوي في معاهد فرنسا مكانة سامية بين أبقراط وجالينوس فأصبح من أركان هذا الثالوث العلمي " .

وفي عام ١٩٧٣ قام العالمان M. S. SPINK و G.L.LEWIS بتحقيق النص العربي بالاستعانة بسبع مخطوطات ، وأضافا مشكورين ترجمة إنجليزية مقابل النص العربي . وللأسف الشديد لم يتمكن العالمان من الاستعانة بالنسخة المحفوظة في الخزانة الحسنية بالرباط والتي أشار إليها مؤخرا الأستاذ محمد العربي الخطابي في الجزء الأول من كتابه "الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية" (دار الغرب الإسلامي ، بيروت ١٩٨٨ – ص١٢٠ ، هامش ٢١) .

وفي نطاق اللغات الرومانسية ــ أي اللغات المشتقة من اللاتينية فتعتبر الترجمة الأوكسيتانية المحفوظة في المخطوط H95 ، الموجود في مكتبة كلية الطب بجامعة MONTPELLIER ، الترجمة الوحيدة لكتاب الجراحة ضمن هذه اللغات . وتعتبر هذه الترجمة التي أمر بها GASTON III DI FOIX الشهير باسم GASTON PHEBUS المتوفى في مدينة أشبيلية عام ١٣٣٤ إحدى الأعمال الهامة التي تكونت منها مكتبة DI FOIX ولأهمية هذه النسخة من الناحية اللغوية ، وكجزء من تراث حضارتنا العربية ، قمت بدراستها وتحقيق نصها في كتاب نشر في مدينة فلورنسا عام ١٩٩٢ :

ABU L-QASIM KHALAF IBN ABBAS AZ-AHRAWI, Detto ALBUCASIS, *La Chirurgia*, Versione Occitanica della prima meta' del Trecento, Edizione critica a cura di Mahmoud Salem Elsheikh, Firenze 1992.

ولجملة ما ذكرنا فإننا نعتبر أبا القاسم " أمير الجراحين " ومؤسس علم الجراحة أو " العمل باليد " إذ أن له الفضل في إحياء هذا العلم كما يقول في مقدمة كتابه : " رأيت أن أكمل علم الطب لكم بهذه المقالة التي هي جزء العمل باليد ، لأن العمل باليد محسنة في بلدنا وفي زماننا معدوم البتة ، حتى كاد أن يدرس علمه وينقطع أثره ، وإن ما بقى منه رسوم يسيرة في كتب الأوائل وقد صفحته الأيدي وواقعه الخطأ والتشويش حتى استغلت معانيه وبعدت فائدته " .

ثم يؤكد على مجهوده الشخصي والمنهج العلمي الدقيق الذي اتبعه في مقالته، فيضيف :

" فرأيت أن أحييه وأؤلف فيه هذه المقالة على طريق الشرح والبيان والاختصار ، وأن آتي بصور حدائد الكي وسائر آلات العمل ، إذ هو من زيادة البيان ومن وكيد ما يُحتاج إليه " .

بل ويوضح لنا أسباب تدهور علم الجراحة أو انعدامه :

" السبب الذي لا يوجد صانع محسن بيده في زمننا هذا ، أن صناعة الطب طويلة ، وينبغي لصاحبها أن يرتاض قبل ذلك في علم التشريح الذي وصفه جالينوس ، حتى يقف على منافع الأعضاء ، وهيآتها ، ومزاجاتها ، واتصالها ، وانفصالها ، ومعرفة العظام والأعصاب والعضلات ، وعددها ومخارجها، والعروق النوابض والسواكن ومواضع مخارجها .." .

ويؤكد أبو القاسم على ضرورة دراسة التشريح دراسة دقيقة وجدية، فيقول :

" قال أبقراط : إن الأطباء بالاسم كثير وبالفعل قليل ولا سيما في صناعة اليد... لأنه من لم يكن عالما بما ذكرنا من التشريح ، لم يخل أن يقع في خطأ يقتل الناس به ، كما شهدت كثيراً ممن تصور في هذا العلم وادعاه بغير علم ولا دراية".

وقسم الزهراوي مقالته إلى ثلاثة أبواب :

١- **الباب الأول** : في الكي بالنار ، والكي بالدواء الحار ، وصور الآلات ، وحدائد الكي ، وكل ما يحتاج إليه في العمل باليد .

٢- **الباب الثاني** : في الشق ، والبط ، والفصد ، والحجامة ، والجراحات ، وإخراج السهام ، وصور الآلات .

٣- **الباب الثالث** : في الجبر ، والخلع ، وعلاج الوتر ، وصور الآلات.

وسأكتفي بعرض سريع لبعض ما يحتوي عليه كتاب الجراحة من أسس ومبادئ تقوم عليها الجراحة الحديثة .

لقد سبق الزهراوي علماء الشرق والغرب في ربط الشرايين ، رغم أن بعض مؤرخي الطب الأوروبيين ينسب هذا الابتكار إلى الحلاق الفرنسي AMBROISE PAR'É (١٥١٠-١٥٩٠) ؛ علما بأن كتاب الزهراوي كان يتداول في أوروبا منذ أواخر القرن الثاني عشر ، وفي فرنسا منذ منتصف القرن الثالث عشر وقد سبق أبو القاسم الحلاق الفرنسي بأكثر من خمسة قرون في تجاربه العلمية لربط الشرايين ، ويكفي أن نلقي نظرة على الفصل ٥٦ من الباب الأول الذي خصصه " لكي النزف الحادث عند قطع الشريان " حيث يقول :

" اعلم أن الشريان إذا نزف منه الدم فإنه لا يستطاع قطعه ، ولاسيما إذا كان الشريان عظيما ؛ إلا بعد أربعة أوجه : إما بالكي كما قلنا ، وإما ببتره ، إذا لم يكن قد انبتر فإنه إذا بتر تقطعت طرفاه وانقطع الدم ، وإما أن يربط بالخيوط ربطا وثيقا ، وإما توضع عليه الأدوية التي من شأنها قطع الدم ... "

بل إنه يضيف في الفصل ٨٤ من الباب الثاني قائلا :

" إذا كان في هذه الجراحات شريان أو عرق ينزف الدم منه ، ولم ينقطع الدم بالأدوية ، ففتش على الشريان ، فإن أصبته لم يتبتر فابتره بالمبضع واربطه ، وإن دعت الضرورة – إذا لم ينفع ما ذكرنا – فاكوه حتى ينقطع الدم ... "

وفي مكان آخر في نفس الفصل :

" فإن كان قد انقطع في الجرح شريان وأدركت دمه ينزف ، فابتره أو أربطه أو أكوه إن دعت الضرورة إلى ذلك " .

ومن الجدير بالذكر أن أبا القاسم يصف في الفصل الثالث من الباب الثاني نوعين من أنواع ربط الشرايين :

" إن كان الشريان عظيما فينبغي أن تربطه في مكانه بخيط مثني قوي ، وليكن الخيط إما من إبريسم وإما من أوتار العود لئلا يسرع إليه العفن قبل التحام الجرح فيحدث النزيف " .

ومما يثير العجب أن بعض مؤرخي الطب الأوروبيين لازال يرجع استعمال الخيط المثني وأنواعه التي أشار إليها أبو القاسم " الحرير وأوتار العود " إلى الجراح الفرنسي ALEXIS CARREL الذي حاز على جائزة نوبل للطب عام ١٩١٢ .

كما خصص أبو القاسم الفصل ٤٩ من الباب الثاني لربط الأوعية الدموية في حالة التمدد الوعائي المعروف باسم " الأنيورزم " بالمعنى أنه سبق JHON MINTER بعدة قرون في هذا الاكتشاف .

وأرسى الزهراوي المبادئ الأساسية لجراحة الفتوق حيث خصص لها في الباب الثاني ستة فصول (٦٢-٦٧) ، وبخاصة " الأدرة الريحية "

التي تعرض لعلاجها لأول مرة بعملية جراحية ؛ وهو صادق عندما يقول: " ما رأيت أحداً أجرأ على علاجها بالحديد " .

ويعتبر أبو القاسم أول من وصف بالتفصيل خياطة جروح الأمعاء باستخدام خيوط مصنوعة من أمعاء الحيوانات ، التي عبر عنها في الفصل ٨٥ من الباب الثاني : " الخيط الرقيق الذي يسل من معراق الحيوان " أو " خيط كتان رقيق مفتول " . وفي الوقت نفسه أخبرنا بتجارب من سبقه من الجراحين .

ففي حالة حدوث جرح صغير في الأمعاء يقول الزهراوي إن أهل التجربة نصحوا بأن " يخاط على هذه الصفة : وهو أن يؤخذ النمل الكبار الرؤوس ثم تجمع شفتا الجرح ثم توضع نملة منها وهي مفتوحة الفم على شفتي الجرح، فإذا قبضت عليه وشدت فمها قطع رأسها فإنه يلصق ولا ينحل".

والزهراوي هو أول من أجرى جراحة على الغدة الدرقية . وهو كذلك أول من اخترع جهازا لاستئصال اللوزتين (" مقصلة اللوزتين ") الذي ظل يستخدم حتى أواسط القرن العشرين . وشرح أبو القاسم في الفصل ٣٦ من الباب الثاني – بدقة لا نظير لها – تجربته الشخصية في استئصال اللوزتين:

" تنظر قبل العمل إن كان قد سكن ورمه الحار سكونا تاما أو نقص بعض النقصان ، وحينئذ أجلس العليل بحذاء الشمس ورأسه في حجرك وتفتح فمه ، وتأخذ خادما بين يديك فيكبس لسانه إلى أسفل بآلة هذه صورتها: تصنع من فضة أو من نحاس ، تكون رقيقة كالسكين ، فإذا كبست بها اللسان وتبين لك الورم ودفع عليه بصرك ، فخذ صنارة

obeikandi.com

واغرزها في اللوزة وتجذبها إلى خارج ما أمكن من غير أن يجذب معها شيئا من الصفاقات ، ثم تقطعها بآلة هذه صورتها: تشبه المقص إلا أن طرفيها منعطفان ، فم كل واحد منها بحذاء الآخر حادان جدا تصنع من الحديد الهندي ، أو الفولاذ الدمشقي .. " .

ولم يكن أبو القاسم مقلداً أو تابعا لمن سبقه من الأطباء والعلماء ؛ بل إن كل ما كتب كان وليد خبرته وتجاربه الشخصية ، وفي أكثر من حالة انتقد من سبقه من الأطباء ورفض نظرياتهم .

فعندما يتحدث مثلا عن " كي السرطان " (الفصل ٥٠ من الباب الأول) ينقل إلينا تجربته العلمية : " إذا كان السرطان مبتدئا وأردت توقيفه فاكوه بمكواة الدائرة حواليه كما تدور " .

" وقد ذكر بعض الحكماء أن يكوي كية بليغة في وسطه ، ولست أرى أنا ذلك، لأني أتوقع أن يتقرح، وقد شاهدت ذلك مرات ، فالصواب أن يكون حواليه بدائرة كما قلنا أو بكيات كثيرة " .

ولا عجب إذا اكتشفنا أن الطب الحديث يتبع حتى الآن ما نصح به الزهراوي في علاج السرطان عند استعمال ELETTROBISTURI حول السرطان لمنع نموه وانتشاره .

لقد حدثنا باختصار وجيز أبقراط و CELSO و GALENO عن الماء الذي يجتمع في رؤوس الأطفال ، بل إن CELSO عرفنا بأن الإغريق كانوا يسمون هذا المرض " أدروكيفالون " ، إلا أن الزهراوي أول من وصف هذا المرض وصفا دقيقا (الفصل الأول من الباب الثاني) في حالاته المختلفة: "وهذه الرطوبة إما أن تجتمع بين الجلد والعظم وإما أن تجتمع تحت العظم على الصفاق " ووصف لكل حالة علاجها :

" والعمل في ذلك : إن كانت الرطوبة فيما بين الجلد والعظم وكان الورم صغيرا ، فينبغي أن تشق في وسط الرأس شقا واحداً بالعرض ، ويكون طول الشق نحو عقدين حتى تسيل الرطوبة . وإن كانت الرطوبة أزيد والورم أعظم ، فاجعلها شقين متقاطعين . وإن كانت الرطوبة تحت العظم ــ وعلامته أن ترى خياطات الرأس مفتوحة من كل جهة والماء ينخفض إذا عصرته بيدك إلى داخل وليس بخفى ذلك عليك ــ فينبغي أن تشق في وسط الرأس ثلاثة شقوق " .

ويتعرض الصبيان عند الولادة لهذا المرض " إذا ضغطت القابلة رأس الصبي بغير رفق " . ثم يضيف أبو القاسم قائلا :

" وقد يعرض أيضا من علة خفية لا تعرف ولم أر هذه العلة في غير الصبيان . وجميع من رأيت منهم أسرع إليه الموت . فلذلك رأيت ترك العمل به . ولقد رأيت منهم صبياً قد امتلأ رأسه ماء ، والرأس يعظم في كل يوم حتى لم يطق الصبي يقعد على نفسه لعظم رأسه والرطوبة تتزايد حتى هلك".

ولا شك في أن أسس الطريقة التي وصفها أبو القاسم (الفصل ٢٣ من الباب الثاني) في قدح الماء النازل في العين ، ولا تزال منذ عشرة قرون حتى يومنا هذا هي نفس الأسس التي يتبعها الطب الحديث ، مع بعض الاختلافات التي ترجع إلى التقدم التكنولوجي " COUCHING OF CATARACT " كما أن وصفه لعمليتي الشترة التي تحدث في الجفن الأعلى أو الأسفل أي انقلاب الجفن للخارج ــ مقارب لحد كبير للجراحة التي تمارس الآن في علاج هذه الحالة .

وعندما يتحدث أبو القاسم (الفصل ٢٩ من الباب الثاني) :

" في جرد الأسنان بالحديد عندما يجتمع في سطوح الأسنان من داخل ومن خارج ، وبين اللثات قشور خشنة قبيحة ، وقد تسود وتصفر وتخضر حتى يصل من ذلك فساد إلى اللثة وتقبح الأسنان "

أليس ذلك هو أول اكتشاف للأدران TARTARO DENTARIO ؟

أليس الزهراوي أول طبيب يشير إلى إزالتها بالجرد ؟

والزهراوي أول طبيب أشار بتشبيك الأضراس المتحركة بخيوط الفضة أو بخيوط الذهب ، بل إنه فضل الذهب :

" لأن الفضة تتزنجر وتعفن بعد أيام والذهب باق على حاله أبدا لا يعرض له ذلك " .

وأعظـم مـن ذلك أن أبا القاسم هو أول طبيب يتحدث عن تصنيع الأسـنان ولم يسبقه في هذا الاكتشاف أي من الأطباء الأوائل ، علما بأن الشاعر MARZIALE كان قد أشار إلى الأسنان الصناعية :

THAIS HABET NEGROS, NIVEOS LAECANIA DENTES; QUAE RATIO EST? EMPTOS HAEC HABET , ILLA SUOS.(Ep. V. 43)

إلا أن الزهراوي ، (في الفصل ٣٣ من الباب الثاني) ، ينصح قائلا :

"وقد ينحت عظم من عظام البقر فيصنع منه كهيئة الضرس ، ويجعل في الموضع الذي ذهب منه الضرس ، ويشد كما قلنا ويستمتع بذلك".

ومـن خـلال ممارسته اليومية للطب والجراحة نقل إلينا أبو القاسم (الفصـل ٨٧ مـن الباب الثاني) " في قطع الأطراف ونشر العظام " حالة مطابقـة تماما لما يسمى بـ " مرض بيرجير " نسبة إلى الدكتور LEO

obeikandi.com

BERGER ، النمســاوي الأصل والذي درس الطب في جامعات أمريكا فــي بدايــة القــرن الماضـــي (١٨٧٩-١٩٤٣) والمعــرف باســم CLAUDICATIO INTERMITTENS ماذا يقول الزهراوي ؟

" وأنا أخبرك بمثال عرض لرجل في رجله هذا العارض بعينه الذي أصــف لك ، وذلك أنه حدث في رجله سواد مع حرقة تشبه النار ، وكان ذلــك الفساد أول ما حدث في إصبعه حتى أخذ الرجل كلها ، فبدر الرجل عن ذاته لما رأى الفساد يسعى في العضو مع شدة ما كان يجد من الوجع والحرقة فقطعه عند المفصل فبرئ . فلما مضى له زمان طويل عرض له ذلك الفساد بعينه في إصبع يده السبابة ، فقصدني فرمت ردع ذلك الفضل بمــا حملــت علــى اليد من الأدوية بعد تنظيفي لبدنه فلم يرتدع الفضل ، وجعل يسعى في الإصبع الأخرى حتى أخذ الفساد في اليد فدعاني إلى قطع يده فأبيت عليه ، وجاء مني على إرداع ذلك الفضل ، وخشيت أيضا عليه عند قطع يده الموت ، لأن قوة الرجل كانت على السقوط . فلما يئس مني، انصــرف إلــى بلــده فبلغني عنه أنه بدر فقطع يده بأسرها فبرئ . وإنما حكيت هذه الحكاية لتكون عونا على ما يقع من جنس هذا المرض ولتكون دليلا يستدل به ويعمل عليه " .

وفي جراحة المسالك البولية كان الزهراوي أول جراح أجرى عملية غسيل للمثانة بواسطة جهاز اخترعه وأسماه " الزراقة " المعروف بالمحقن والــذي لا يــزال سكان مدن المغرب يطلقون عليها اسم " السراقة " وقد وصف أبو القاسم الآلة التي اخترعها وطريقة استعمالها " في حقن المثانة " (الفصل ٥٩ من الباب الثاني) وعرفنا بأنها :

" تصنع من فضة أو من عاج ، مجوفة ، لها أنبوبة طويلة على رقة الميل ، مجوفة كلها إلا الطرف فإنه مصمت فيه ثلاث ثقوب ، اثنتان من جهة وواحدة من جهة أخرى ... " .

فضلا عن ذلك فإن الزهراوي هو أول طبيب وصف عملية إخراج الحصاة ، وميز بين " الحصاة المتولدة في الكلى والحصاة المتولدة في المثانة " وأشار إلى أنواعها :

"اعلم أن أنواع الحصاة كثيرة منها صغار وكبار وملس وحرش وطوال ومدورة وذات شعب ، فاعرف أصنافها لتستدل بذلك على ما تريد".

كما حدد بأن :

" الحصاة المتولدة في المثانة أكثر ما تعرض للصبيان ومن علاقتها أن البول يخرج من المثانة شبيها بالماء في رقته ، ويظهر فيه الرمل ، ويحك ذكره ويعبث به ، وكثيرا ما يتدلى ثم ينتشر ، وتبرز معها المقعدة في كثير منهم . ويسهل برور الصبيان منها إلى أن يبلغوا أربع عشرة سنة ويعسر في الشيوخ " .

ثم يتابع :

" وأما الشبان فمتوسط فيما بين ذلك تكون حصاته أعظم ، يكون علاجه أسهل والصغيرة بعد ذلك " .

ولكي يصف عملية إخراج الحصاة ، خصص أبو القاسم فصلا للرجال (الفصل ٦٠ من الباب الثاني) وفصلا آخر للنساء (الفصل ٦١ من الباب الثاني) ، حيث يؤكد بأنه :

" قليلا ما تتولد الحصاة في النساء ، فإن عرض لأحد منهن حصاة فإنه يعسر علاجها ويمتنع لوجوه كثيرة ، أحدها أن المرأة ربما كانت بكرا،

openkandil.com

والثانية أنك لا تجد امرأة تبيح نفسها للطبيب إذا كانت عفيفة أو من ذوات المحـــارم . والثالثة إنك لا تجد امرأة تحسن هذه الصناعة ولا سيما العمل باليد . والرابعة أن موضع الشق على الحصاة من النساء بعيد من موضع الحصاة فتحتاج إلى شق غائر وفي ذلك خطر " .

وفي حالة الضرورة القصوى ، ينصح أبو القاسم :

" أن تتخذ امرأة طبيبة محسنة ، وقليلا ما توجد ، فإن عدمتها فاطلب طبيـــبا عفيفا رفيقا ، أو تحضر امرأة قابلة مسنة في أمر النساء ، أو امرأة تشير في هذه الصناعة بعض الإشارة .. "

ويرجع إلى أبي القاسم فضل اختراع " الجفت " لإخراج الجنين الحي قبل أن يكتشفه الطبيب الإنجليزي PETER CHAMBRLAIN ، الذي اكتسب من الشهرة والمال ما لم يحلم به طبيب لاكتشاف كان الزهراوي قد اخترعه ومارس به العمل قبل الطبيب الإنجليزي بـــ ٧٠٠ عام ، وترك لنا العديد من أشكاله في (الفصل ٧٧ من الباب الثاني لكتاب الجراحة) .

وزيادة على ذلك فإن الزهراوي ــ إلى جانب وصفه الدقيق للآلات التـــي يحـــتاج إلـــيها في إخراج الجنين ــ مثل اللولب لفتح فم الرحم ، أو المدفع الذي يستخدم لدفع الجنين وقت الوضع ، أو المشراخ (الجفت) الذي يشدخ به رأس الجنين ، وغيرها من الآلات ــ يعتبر أول من نصح المرأة بـــأن تســـتلقي على سرير في الوضع الذي يسميه الطب الحديث " وضع وولكـــر " نســـبة إلـــى الطبيـــب الألمانـــي GUSTAV ADOLF WALCHER ، الـــذي تـــرجع شـــهرته في القرن قبل الماضي إلى هذا الاكتشاف .

ويعتبر الزهراوي رائد جراحة التجميل ، ومبتكر الشق الهلالي المزدوج الذي نصح بعمله مثلا في " علاج ثدي الرجال الذي تشبه ثدي النساء " (الفصل ٤٧ من الباب الثاني) أو في الفصل الذي يليه " في ربط الأورام التي تعرض تحت الإبط " . وما التعليم بالمداد إلا أول خطوة للعمليات الجراحية ، وما استخدام الصنانير ــ الذي خصص لها الفصل ٤٦ من الباب الثاني ــ إلا أكبر دليل على مدى احترام الأنسجة .

ويعتبر فصل إخراج السهام من أهم وأدق الصفحات التي سطرها الزهراوي؛ إذ لم يتوقف عند وصف عمليات إخراج السهام بحسب أنواعها وأحجامها ، وبحسب المكان الذي تصيب فيه الجسم عارضا أحدث الآلات التي تساعد على إخراج السهام مثل المثقب والمدفع والكلاليب التي أطال في وصفها وفي طريقة استعمالها ، بل إنه سرد العديد من تجاربه الشخصية لتكون :

" قياسا ودليلا على ما لم أذكره لأن أجزاء هذه الصناعة وتفصيلها لا يدرك بالوصف ولا يحيط به كتاب ، وإنما الصانع الحاذق يقيس بالقليل على الكثير ، وبما حضر على ما غاب ، ويستنبط عملا جديداً وآلة جديدة عند النوازل الغريبة إذا نزلت عن هذه الصناعة " .

وكان للجانب الأخلاقي في ممارسة الطب أهميته ومكان تقديره في نظر الزهراوي ؛ وفي إطار هذا المفهوم لم يفرق مطلقا بين رجل وامرأة ، وبين مسلم ويهودي ومسيحي ، ويتضح ذلك من خلال سرد تجاربه ، فيقول مثلا :

" أخرجت سهما آخر ليهودي كان واقعاً في شحمة عينه تحت الجفن الأسفل، وكان السهم قد توارى ولم ألحق منه إلا طرفه الصغير الذي

يلصق في الخشبة ، وكان سهما كبيرا من سهام القس المركبة مربع الحديد أملس لم يكن فيه أذنان ، فبرئ اليهودي ولم يحدث في عينه حادث سوء".

ثم يتابع حديثه قائلا :

" وأخرجت سهما آخر من حلق نصراني ، وكان السهم عربيا وهو الذي له أذنان ، فشققت عليه بين الواجن وكان قد غار في حلقه فلطفت به حتى أخرجته فسلم النصراني وبرئ " .

ويحدثنا بعد ذلك عن امرأة :

" واقعها في بطنها سهم والتحم الجرح وبقي السهم ولم يتغير من أحوالها شيء ، ولا كانت تجد له حذرا في شيء من أفعالها الطبية " .

وفي مقدمة الباب الثالث ، الذي يعتبره أبو القاسم :

" من وكيد ما يحتاج عليه في صناعة الطب وهو جبر الكسر والفك الحادثين في العظام " .

يؤكد الزهراوي على تدهور هذا الفن ، فيقول :

" قد يدعى هذا الباب الجهال من الأطباء والعوام ومن لم يتصفح قط للقدماء فيه كتابا ولا قرأ منه حرفا ولهذه العلة صار هذا الفن من العلم في بلدنا معدوما ".

وبإيجاز بليغ وأمانة علمية منقطعة النظير يحدثنا عن مصادر دراسته وكيف نبغ في هذا الفن :

" وإني لم ألق فيه قط محسنا البتة وإنما استفدت منه ما استفدت لطول قراءتي لكتب الأوائل وحرصي على فهمها حتى استخرجت علم ذلك منها " .

ولو تمعنا جيدا فيما كتب أبو القاسم لوجدنا فعلا أن أساس هذا الباب يرجع إلى أعمال من سبقه من علماء الطب الأوائل قبل أبقراط وجالينوس , PAOLO D'EGINA , CELSO ، وغيرهم من الأوائل . إلا أن الزهراوي لم يكتف بترديد ما كتبه القدماء ، بل إنه يناقش آراء الآخرين ويبدي فيها رأيه بصراحة علمية نابعة من دراساته ومن خلال تجاربه اليومية ، كما نلاحظ مثلا في فصل " جبر الأضلاع إذا انكسرت " ، حيث يقول :

" وقد تحيلت الأوائل فيه بحيل كثيرة ، فمنهم من قال ينبغي أن تجعل أغذية العليل ما يولد النفخ والرياح لينتفخ البطن ويتمدد ويندفع الكسر إلى خارج ، ونحن نكره هذا لئلا يكون توكيداً لحدوث الورم الحار إن كان لم يحدث ؛ فإن كان قد حدث ، فإنه يزيد فيه ويؤكده . وقال بعضهم : توضع على الموضع محجمة ثم تمص بقوة وهو أشبه بالقياس ، إلا أنه يتخوف أن تجذب المحجمة فضولا إلى الموضع لحال ضعفه . وقال بعضهم ينبغي أن يغطى الموضع بصوف قد غمس في زيت حار وتصير رفادة فيما بين الأضلاع حتى تمتلئ فيكون الرباط مستويا إذا لففته على استداره " .

وأضعف الإيمان بهذا الصدد أن نعترف بفضل أبي القاسم في دراسة وتفهم نظريات الأوائل ونقلها مزودة بآرائه الشخصية وتجاربه العلمية .

ومن أهم ما يلفت النظر في مقدمة هذا الباب ما ينصح به الزهراوي في حالة كسر أو فك أو وثء أو سقطة :

" فينبغي أن تسرع أولا إلى فصده أو إسهاله أو هما جميعا إن لم يمنع من ذلك مانع مثل ضعف القوة ، أو كان الذي حدث به شيء من ذلك صبيا أو شيخا هرما ، أو كان الزمان شديد الحر أو شديد البرد جداً " .

وأهم من ذلك ما ينصح به من غذاء للعليل ، إذ لابد أن :

" يقتصر في غذائه على البقول الباردة ولحوم الطير والجداء ، ويمنع الشراب واللحوم الغليظة والتملو من الطعام وكل غذاء يملأ العروق دما " .

وإذا أخذ العظم المكسور في الانجبار :

" فينبغـــي أن يـــتغذى العليل بأغذية تغذو غذاء كثيرا غليظا متينا ، يكـــون فـــيه لزوجه ، مثل الهرائس والأرز والرؤوس والأكارع وكروش الـــبقر والبـــيض والســـمك الطري والشراب الغليظ ونحو ذلك ، فإنه بهذا التدبير يكون انعقاد الكسر أسرع وأجود " .

وأعتقد أن هذا ما ينصح به الطب الحديث !!

كمـــا أن طرق علاج فك المرفق التي تعرض إليها في (الفصل ٢٧ مـــن الباب الثالث) ، والورك المفكوك الذي خصص لـــه (الفصل ٣١ من نفس الباب) تعتبر تجديدا هاما في هذا المجال ، وتشكل أساس العلاج الذي يمارسه اليوم الطب الحديث ، في الحالات التي طرحها الزهراوي ببلاغة ووضوح ، ينم عن عبقرية فذة ودراية كاملة بفن الجراحة والتشريح .

ولا يمكن أن أختتم هذه اللمحة السريعة عن فضل الزهراوي على الطب الحديث ، دون الإشارة إلى أهم التجديدات التي نقلها لنا كتاب الجراحة ، ألا وهي الآلات . فإلى جانب آلات الكي التي أشار إليها عبر الستة وخمسين فصلا الذين يتكون منهم الباب الأول ، والتي نذكر منها ، على سبيل المثال :

المكـــواة الزيتونـــية ، المكـــواة قرنية الرأس ، المكواة المسمارية ، المكـــواة الســـكينية ، المكواة الهلالية ، المكواة المجوفة ، المكواة الخاصة لعلاج الناصور في مآقي العين ...

وتتضح مهارة ومقدرة أبي القاسم في إبداع آلات جديدة صالحة لعلميات حساسة مثل الآلات التي تستخدم في الشق والبط التي صورها في الفصل ٤٦ من الباب الثاني ، مثل المدس على اختلاف أحجامه ، والمسامير التي أطلق عليها اسم البرد ومنها الكبير والوسط والصغير ، والمستعملة " في تفتيش الأورام والجراحات والنوامير والمخابئ عن ما داخلها من العظام وغير ذلك"، والصنانير باختلاف أنواعها وأحجامها " كبار ووسط وصغار ، ومنها الصنانير العميان وهي ثلاثة أنواع ، منها الصنانير المعوجة ذات المخطافين وهي ثلاثة أنواع وجميع هذه الأنواع يحتاج كل واحد منها في موضعه " والمشارط " التي تشق وتسلخ بها السلع والأورام وهي ثلاثة أنواع ... " ، والمخادع " وهي ثلاثة أنواع ... تصنع من نحاس شبه المرود الذي يكتحل به، وفي الطرف الواحد شبيه ملعقة عريضة من طبقتين تكون في رأسها شفرة المبضع مخيفة فيه ، تشبه لسان الطائر تجري إلى الداخل وإلى الخارج " والمباضع " التي تستر بين الأصابع عند بط الأورام " والمحاجم " التي يقطع بها نزف الدم " والمقص ـ وخاصة المستعمل في تطهير الصبيان وغيره من أنواع المقصات ، والمحقن المستعمل في حقن المثانة ، ومبضع النشل المستعمل في الشق لإخراج الحصاة ، وآلات الولادة التي خصص لها أبو القاسم (الفصل السابع والسبعون من الباب الثاني)، مثل : اللولب لفتح فم الرحم، والمدفع الذي يستعان به على دفن الجنين، والشداخ الذي يشدخ به رأس الجنين، والأنبوبة التي اخترعها لتوصيل البخار إلى فم الرحم لإخراج المشيمة إذا احتبست بعد النفاس .. وجملة الآلات التي وصفها والتي كان لها الفضل في تغيير فن الجراحة والعمل باليد والرقي به إلى ما وصل إليه في يومنا هذا .

أليست كل هذه الابتكارات كافية لتخليد اسم الزهراوي ؟

أليست كل هذه الاختراعات كافية لكي نفتخر بما جنينا ونتخلص من عقدة النقص التي نعانيها ، وننظر إلى المستقبل في ظل هذا التراث الخالد؟

أليست أمثلة الزهراوي في تاريخ العمل الإسلامي كافية لنشيد به بين شبابنا حتى تقف أجيال العرب والإسلام على حقيقة تراثنا ــ التراث الذي بنت عليه أوروبا عصر نهضتها وعلمها الحديث ، الذي تسيطر من خلاله على فكرنا وثقافتنا وثرواتنا ؟!

إن العلـــوم والآداب لا تــنمو وتتقدم إلا في نسيم الحرية ، ولا يقاس تحضر الشعوب وتقدمها إلا بمقدار تفوقها في الفنون والآداب والعلوم فإلى متى سننتظر العودة إلى الأندلس ؟

openkandl.com